ابن حزم في (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين ابن الخطيب

قال لسان الدين الخطيب، وهو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي ثم المغربي (776هـ) في كتابه: (الإحاطة في أخبار غرناطة):

علي بن أحمد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، الإمام أبو محمد بن حزم.

أصله من الفرس، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد، مولى ليزيد بن أبي سفيان. قال أبو مروان ابن حيان: وقد كان من عجائبه، انتماؤه في فارس، وأتباع أهل بيته له في ذلك حقبة من الدهر، تولى فيها الوزير، المفضل في زمانه، الراجح في ميزانه، أحمد بن سعيد بن حزم، لبني أمية أولياء نعمته، لا عن صحة ولاية لهم عليه، فقد عهده الناس مولد الأرومة من عجم لبلة، جده الأدنى، حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم لسلفه نباهة. فأبوه أحمد، على الحقيقة، هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر، برأس رايته، وعمره بالخلال الفاضلة، من الرجاجة والدهاء والمعرفة والرجولة والرأي، فأسدى جرثومة شرف لمن نماهم، أغنتهم عن الرسوخ في أولى السابقة، فما من شرف إلا مسبوق عن خارجته، ولم يكن إلا كلا ولا، حتى تخطى على هذا أوليته لبلة. فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس. فالله أعلم كيف ترقاها، إذ لم يكن يؤتى من خطل ولا جهالة، بل وصله بها وسع علم، ووشجة رحم معقومة، فلها يستأخر الصلة، فتناهت حاله مع فقهاء عصره إلى ما وصف، وحسابه وحسابهم على الله، الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة. عزت قدرته.

قال الحميدي: كان حافظاً، عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا، بعد الرياسة التي كانت له، ولأبيه من قبله، في الإدارة وتدبير الممالك، متواضعاً، ذا فضايل جمة، قال، وما رأينا مثله، فيما اجتمع له. مع الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين.

قال أبو مروان ابن حيان، كان أبو محمد حامل فنون، من حديث وفقه ونسب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة. وله في ذلك عدة تواليف. وقد مال أولاً به النظر في الفقه إلى رأي أبي عبد الله الشافعي، وناضل عن مذاهبه، وانحرف عن مذهب غيره، حتى وسم به، واستهدف بذلك إلى

كثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ. ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر، مذهب داود بن علي، ومن تبعه من فقهاء الأمصار، فنقحه ونهجه، وجادل عنه، ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه إلى أن مضى بسبيله. وكان يحمل علمه، ويجادل عنه لمن خالفه فيه، على استرسال في طباعه، واستناد إلى العهد أخذه الله على العلماء من عباده، ليبينه للناس، ولا يكتمونه، فآل أمره إلى ما عرف.

قال: سمع سماعاً جماً، وأول سماعه من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربع مئة.

قال: بلغت تواليفه أربع مائة مجلد. وقال، حمل بعير. فمنها في علم الحديث كتاب كبير سماه الإيصال في فهم الخصال، الجامعة لجمل شرائع الإسلام، في الواجب والحلال والحرام، وساير الأحكام، على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع. أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين، وبيان ذلك كله، وتحقيق القول فيه. وله كتاب الإحكام لأصول الأحكام في غاية التقصي وإيراد الحجاج. وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. وكتاب الإجماع ومسائله على أبواب الفقه. وكتاب المجلى والمحلى وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض. وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل. وهذا مما سبق إليه، وكتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية. والأمثلة الفقهية. فإنه سلك في بيانه، وإزالة سوء الظن عنه، وتكذيب المنحرفين به، طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمنا.

قال: وكان له في الأدب والشعر نفسٌ واسع، وباع طويل. وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه. وشعره كثير، وقد جمع على حروف المعجم.

ومنه قوله:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ، فجائعه تبقى ولذاته تفنى
وإذا أمكنت فيه مسرة ساعةٍ ، تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعاتٍ في المعاد وموقفٍ نود ، لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على همٍّ وإثمٍ وحسرةٍ ، وفات الذي كنا نلذ به عينا
حنينٌ لما ولى وشغل بما أتى ، وغمٌّ لما يرجى فعيشك لا يهنا

كأن الذي كنا نسر بكونه ، إذا حققته النفس لفظٌ بلا معنى

ومن ذلك قوله من قصيدة في الفخر:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ، ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ، لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ، ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ، فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل: أغفلته وهو حاضر ، وأطلب ما عنه تجيء به الكتب!
هنالك يدري أن للبعد قصة ، وأن كساد العلم آفته القرب!

ومنها في الاعتذار عن المدح لنفسه:

ولكن لي في يوسف خير أسوة ، وليس على من بالنبي ائتسى ذنب
يقول وقال الحق والصدق إنني ، حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن شعره قوله فيما كان يعتقده من المذهب الظاهري:

وَذِي عَذَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ ، يُطِيلُ مَلامي في الهَوَى ويَقُولُ
أَمِنْ حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لم تَرَ غَيْرَهُ ، ولم تَدْرِ كيفَ الجِسْمُ أنتَ قَتِيلُ؟
فقلتُ لَهُ: أسْرَفْتَ في اللَّوْمِ فاتَّئِدِ ، فَعِنْدِي رَدٌّ لَوْ أشَاءُ طَوِيلُ
أَلَمْ تَرَ أنِّي ظَاهِرِيٌّ وأنَّنِي ، علَى ما بَدَا حتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

ومن ذلك قوله:

أين وجه قول الحق في نفس سامع ، ودعه فنور الحق يسري ويشرق

سيؤنسه رفقاً فينسى نفاره ، كما نسي القيد الموثق مطلق

ومن ذلك قوله:

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي ، فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى ، له سأل المعاينة الكليم

وفي المعنى:

يقول أخي شجاك رحيل جسم ، وروحك ماله عنا رحيل
فقلت له المعاين مطمئن ، لذا طلب المعاينة الخليل

دخوله غرناطة: وصل في جملة الإمام المرتضى، ولما جرت عليه الهزيمة واستولى باديس الأمير بغرناطة على محلته، كان أبو محمد من عداد أسراه مع مثله، إلى أن أطلقه بعد لأي، وخلصه الله منه.

محنته:

قال ابن حيان: استهدف إلى فقهاء وقته، فتألبوا على بغضه، ورد قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا أعوامهم عن الدنو إليه، والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه على قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به، منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة، وبها توفي غير راجع إلى ما أرادوا، به يبث علمه فيمن ينتابه بباديته من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة، الذين لا يحسون فيه الملامة بحداثتهم، ويفقههم ويدرسهم، ولا يدع المثابرة على العلم، والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية، وفي ذلك يقول:

فإنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاس لا تَحْرِقُوا الَّذِي ، تَضَمَّنَهُ القرطاسُ بَلْ هو في صَدْرِي
يَسِيرُ معي حيثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي ، وَيَنزِلُ إنْ أَنْزِلْ ويُدْفَن في قَبْري

مولده: سنة أربع وثمانين وثلاث مئة بقرطبة.

وفاته: توفي سنة ست وخمسين وأربع مئة.